شبابُ النبيّ ﷺ

لقدْ كانتْ مرحلةُ شبابه ﷺ طاهرةً نقيةً، مستقيمةً ذكيةً بعيدةً كلَّ البُعد عن اللهو والعبث، بعيدةً عن الشيطان ووساوسه وعنْ الهوَى وهَواجسه؛ فقدْ عصمهُ اللهُ تعالَى ورعاهُ، وحفظهُ من كلِّ سُوء، فشرحَ صدرَه، ولمْ يجعلْ للشيطان عليه منْ سبيل. وبرغم ما كانتْ تعجُّ به الحياةُ منْ حوله من لَهْو وعَبَث، ومنْ تهالُك الشباب وتهافتهم على مظاهر اللعب واللهو والطرَب فإنَّ شبابَ رسولنا ﷺ كانَ مصونًا منْ كلِّ دَنَس، محفوظاً منْ كلِّ سوءٍ أو شرٍّ.

وكانَ طبيعيًا أن ينشأَ هذه النشأةَ الطاهرةَ النقيةَ؛ لأنَّ العنايةَ الإلهيةَ كانتْ تُعدّه لأمر السماء، ووحي الله وتبليغ الرسالة، فلقد كانَ ﷺ دعوةَ أبيه إبراهيمَ، وبُشرَى أخيه عيسى عليهمَا السلامُ.

ولقدْ عاشَ رسولُ الله ﷺ فترةَ شبابه بالعمل والسَّعْي، واشتغلَ برعْي الأغنامِ، قالَ ﷺ:

«كنتُ أرعَى الغنمَ علَى قراريطَ لأهل مكةَ»[1].

(١) رواه البخاري.

وفي كَدِّه وجدِّه ﷺ، وفي اشتغاله بالعمل - رغمَ كفالة عمِّه لهُ - ما يفيدُ أهميةَ العمل، وأنَّ خيرَ ما يأكلُه الإنسانُ ما كانَ منْ عملِ يده، كمَا أن للعمل ثمرةً مهمة أخرَى بالإضافة إلى نفع الإنسان لنفسه، وتلكَ الثمرةُ هيَ انتفاعُ الحياةِ منَ العملِ، وازدهارُ حركة المجتمع فيهَا بالنشاط والتفاعُل معهَا.

* * *

وحفظَ اللهُ تعالَى رسولَه ﷺ منْ لهو الجاهلية وعبثها.

قالَ ﷺ: «ما هممتُ بشيء ممَّا كانُوا في الجاهلية يعملونَه غيرَ مرتين، كلُّ ذلكَ يحُولُ اللهُ بيني وبينَهُ، ثمَّ ما همَمْتُ به حتَّى أكرمني اللهُ بالرسالة. قلتُ ليلةً للغلام الذي يرعَى معي بأعلَى مكةَ: لو أبصرتَ لي غنمي، حتَّى أدخلَ مكةَ، وأسمر بها كمَا يسمرُ الشبابُ.

فقالَ:

- أفعلُ.

فخرجتُ حتَّى إذا كنتُ بمكةَ سمعتُ عزفًا، فقلتُ: ما هذَا؟!

فقالُوا: عُرْسٌ.

فجلستُ أسمعُ، فضربَ اللهُ على أذني، فنمتُ، فما أيقظني إلا حَرُّ الشمس، فعدتُ إلى صاحبي، فسألني فأخبرتُه.

ثمَّ قلتُ لهُ ليلةً أخرَى مثلَ ذلكَ، ودخلتُ مكةَ، فأصابني مثلُ أول ليلة. ثمَّ ما هممْتُ بعدَهُ بسُوء[1].

هكَذَا كانت العنايةُ الإلهيةُ تحيطُ بحياة الرسول ﷺ في كلِّ لحظةٍ منَ اللحظات، وفي كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

واشتُهرَ ﷺ بينهمْ بالأمانة، والحكمة، وكلِّ فضيلة كريمة منَ الفضائل المُثْلَى، حتى أنهمْ كانُوا يتحاكمونَ إليه فيمَا شجرَ بينهمْ أو اختلفُوا فيه.

ومنْ المواقف المشهورة في ذلكَ موقفُه من وضع الحجر الأسود، عندمَا دبَّ الخلافُ بينَ قريش بسبب وضعه، فإنهمْ عندمَا انتهَوْا من بناء الكعبة إلى مكان الحجر الأسود قالتْ كلُّ قبيلة: نحنُ أحقُّ بوضعه واختلفُوا، وكادتْ تقعُ فتنةٌ كُبرَى، خيفَ منها القتالُ، ثمَّ انتهَوْا إلى أنْ يتحاكمُوا إلى أول مَنْ يدخلُ عليهم منْ باب بني شيبةَ، فيكونُ هوَ

(١) رواه الحاكم والطبراني.

الذي يقضي بينهمْ، فكانَ أولَ مَنْ دخلَ هو محمدٌ ﷺ .

فلمَّا رأوْه قالُوا: هذَا هوَ الأمينُ. قد رضينا بمَا قضَى بيننَا.

ثمَّ أخبروه بالأمر، فقالَ ﷺ: «هلُمَّ إليَّ ثوبًا. فأتيَ به فأخذَ الحجرَ الأسودَ فوضَعَه فيه بيده، ثمَّ قالَ: لتأخذْ كلُّ قبيلة بناحية منَ الثوب، ثم ارفعُوه جميعًا. ففعلُوا، حتَّى إذا بلغُوا به موضِعَه وضعَه هو بيدِه، ثم بنَى عليهِ.

obeikandl.com